رقة البحر وعذوبة الصحراء في شعر

غازي القصيبي

القصيبي ، صوت الجزيرة الدافئ الذي ملأ الدنيا شعرا ، وعبق ساحتها شدوا وغناء وسحرا بكلماته العذبة التي يفوح منها عطر الصحراء ، وأساليبه المحملة برائحة البحر ، وقصيده الذي يتألق نظما كسموق النخل ، والقصيبي الشاعر قد جمع في شعره بين الرومانسية الحالمة ، والكلاسيكية بما تحمل من أصالة وجذالة ، وقصيده خير شاهد على ما نقول :

ففي قصيدة أغنية للخليج يبرز تعلقه بالخليج ، وأنه لا يحتمل البعد عنه يسافر ويغترب ، لكنه سرعان ما يعود في لهفة وشوق يعانق الرمل ، ويوشوش الأصداف ، وينبش عن ذكرياته القديمة ، يقول :

أتيت أرقب ميعادي مع القمرِ
يا ساحر الموج والشطآن والجزرِ
هديتي رعشتا شوق ..وقافية
حملتها كل ما عانيت في سفري
ت أمرح فوق الرمل .. أنبشه
عن ذكرياتي القدامي عن هوى صغري
عن النجوم أنبناها بأكؤسنا
عن الليالي مشيناها على الوتر
أمر بالشاطيء الغافي فأوقظه
بقبلة .. وأناديه إلى السمر

أقـــول : " شـــاعرك الولهـــان .. تـــذكره ?!
أتـــــاك يحلـــــم بالأصـــــداف والـــــدرر
مـــن بعـــد أن ذرع الـــدنيا فمـــا فتحـــت
لـــــه الشـــــواطيء إلا مرفـــــأ الضـــــجر
ولحـــت يـــا أزرق العينـــين ..فانطلقـــت
أشـــواقه بجنـــون البيـــد فـــي المطـــر)

ثم يعود ليتحدث عن الغوص ، وما يحمل من ذكريات طيبة ، وأغنيات عذبة ، وما فيه من تعب وعناء في رحلات شاقة ، وتعب متواصل ، يقول :

خلـــيج ! مـــا وشـــوش المحـــار فـــي أذنـــي
إلا ســـــمعتك صـــــوتا دافـــــيء الخـــــدر
ولا تـــــــرنَّم مـــــــلاح بأغنيـــــــة
إلا وضـــجّت أغـــاني الغـــوص فـــي الســـحر
ولا رأيـــــت شـــــراعا ضـــــمه أفـــــق
إلا ومـــرت هـــواري الصـــيد فـــي فكـــري
ولا احترقـــــتُ بنـــــار الشـــــمس ثانيـــــة
إلا ابتـــردت بمـــا خلَّفـــت فـــي ذكـــري

وعندما يعود يلقي عصا التسيار ، ويرتمي على الشاطئ يبثه أشواقه ، وما صادفه في ترحاله عنه من متاعب ، وأن كل المرافئ بعد الخليج موحشة ، وكل البحار بعد الخليج لا تروق له ، ولا يلذ له فيها الإبحار والانطلاق ، يقول :

خلـــيج ! مـــرت علينـــا بـــالنوى ســـنة
فهات حـــدّث وسَـــلْ مـــا شـــئت مـــن خبـــري

ركبتُ سبعين بحرا .. جُبت أودية
طارت بيَ الريح من أمن إلى خطر
ضحكت والحب يرعاني ببسمته
ونُحتُ والحب ليل صاخب الكدر
عشت السعادة حُلما لا يفارقني
وعشت أعنف حزن في دم البشر
حتى أتيتك .. فامسح بالنسيم على
آهات جرحي .. ورش ـ ـوج في شرري
وصُبَّ في مسمعي الظمآن ملحمة
من عالم الظل والألوان والصور
عن الشواطيء تغوي الشمس وجنتها
فترتمي في أصيل أحمر الخَفَر
عن اللآلىء في أصدافها رقدت
وخلّفت أعين الغواص للسهر

ثم لا ينفك يتحدث عن عروبة الخليج وما يتمناه له من سلام ، وأمن وأمان ويدعوله بالحفظ والحماية ، وأن يحفظه الله من كل معتد مغير. يقول :

خليج ! يا موجة بيضاء .. تتقلها
أصابع الشوق من قلبي إلى بصري
أعيذ وجهك أن تغزو ملامحه
رغم العواصف إلا بسمة الظفر
عهدته عربيا .. ما لوى فمه

بلكنـــة هـــاجرت مـــن شـــاطيء التتـــر
عهدتـــــه عربيـــــا .. مـــــلء جبهتـــــه
كبْـــرٌ مـــن البيـــد ... لـــم يركـــع علـــى قـــدر
عهدتـــــه عربيـــــا .. مـــــا غفـــــا وصـــــحا
إلا علـــــى لغـــــة الإعجـــــاز والســـــور

وإمعانا في حب الخليج والتعلق به ، يظهر العلاقة بين دول الخليج وبلدانه وما بينها من أواصر المودة ، وصلة الرحم والقربى بين شعوبه ، ويدلل على ذلك بالحديث عن الجسر المقام بين البحرين والسعودية ، وأنه ليسْ جسرًا من الحجارة بل جسرًا من المودة والإخاء يربط بين الإفراد ، ويقرب بينهم ، ويجمعهم على الخير والوفاء ، **يقول** :

ضـــرب مـــن العشـــق لا درب مـــن الحجـــر
هـــذا الـــذي طـــار بالواحـــات للجـــزر
ســـاق الخيـــام إلـــى الشـــطآن فانزلقـــت
عبـــر الميـــاه شـــراع أبـــيض الخفـــر
مـــاذا أرى؟؟زورق فـــي المـــاء منـــدفع
أم انـــه جمـــل مـــا كـــلّ مـــن ســـفر
وهـــذه أغنيـــات الغـــوص فـــي أذنـــي
أم الحـــداة شـــدوا بالشـــعر فـــي الســـحر
واســـتيقظت نخلـــة وســـنى توشوشـــني
مـــن طـــوق النخـــل بالأصـــداف والـــدرر؟؟

وفي غمرة الشعور الأخوي الآسر ينسى القصيبي نفسه ، فلا يستطيع تحديد موضعه ، لأن كل بلد خليجي بلده ، **يقول** :

نسـيت أيـن أنـا!! إن الريـاض هنـا
مـع المنامـة مشـغولان بالسـمر
أم هـذه جـدة جـاءت بأنجمهـا
أم المحـرق زارتنـا مـع القمـر
وهـذه ضـحكات الب ـر فـي الخبـر
أم الرفـاع رنـت فـي موسـم المطـر
أم أنهـا مسـقط السـمراء زائرتـي
أم أنهـا الدوحـة الخضـراء فـي قطـر
أم الكويـت التـي حبـت فهمـت بهـا
أم أنها العـين فكـم فـي العـين مـن حـور
بـدو وبحـارة مـا الفـرق بينهمـا؟
والبـر والبحـر ينسـابان مـن مضـر
خلـيج إن حبـال الله تربطنـا
فهـل يقربنـا خـيط مـن الحجـر؟

والقصيبي بارع حينما يصف ، تامل دقة ما يتناول عندما يتحدث عن بيروت وكيف فاقت البلاد حسنا ، ورقة هواء ، وطيب أنفاس تفوح من الأزاهير والأشجار وما يجول في الجو من غناء الأطيار ، يقول واصفا بيروت :

بيـــروت! ويحـــك! أيـــن الســـحر والطيـــب؟
وأيـــن حســـن علـــى الشـــطآن مســـكوب؟
وأيـــن رحلتنـــا و الوجـــد مركبنـــا؟
والبحـــر أفـــق مـــن الأحـــلام منصـــوب؟
وأنـــت مترعـــة النهـــدين مترفـــة
دنيـــاك وعـــد بشـــوق الوصـــل مخصـــوب
فـــي مقلتيـــك مـــن الأهـــواء أعنفهـــا
وفـــي شـــفاهك إيمـــاء و ترحيـــب
وفـــي يمينـــي ورود جئـــت أزرعهـــا
علـــى ضـــفائر فيهـــا الليـــل مصـــلوب

° ° °

بيـــروت! مـــاذا يقـــول النـــاس؟ هـــل نبحـــت
بـــيض الأمـــاني.. و غـــال الطفلـــة اللـــذيب؟
وهـــل تـــوارى ملـــيح كـــان يأســـرني
وهـــل قضـــى قبـــل يـــوم الوعـــد محبـــوب؟
وأيـــن مـــا كـــان-يـــا بيـــروت-إذ رقصـــت
لـــي الليـــالي.. و طـــارت بـــي الأعاجيـــب؟
وأيـــن شـــعر جميـــل لســـت أنكـــره

على الصنوبر و التفاح مكتوب؟

و أين أول حب ضمني.. و مضى

و وقده في حنايا القلب مشبوب؟

° ° °

وفي غمرة الوصف لا ينسى ما ألم ببيروت ، وما أصابه نتيجة الخلافات والانقسامات بهول وهو العربي الذي يحب بيروت :

بيروت! لا تصفي لي الجرح.. أعرفه

فإنه في دمائي الحمر معصوب

أنا الذي أسرته الروم.. ما لحقت

به العراب.. و خانته الأعاريب

حملت في كبدي الآلام فانفطرت

وطوحت بي إلى اليأس التجاريب

يا للزعامات تلهو بي.. و أعشقها

وربما عشق الأرزاء منكوب

كم أرضعوني شراب الوهم. كم سخروا

مني.. و كم غصبت روحي الأكاذيب

لا تنتهي غفلة عندي معتقة

و لا انتهت عندهم تلك الألاعيب

ثم يبين واقع العرب المؤلم ، وما دهاهم من انقسام وتشرذم بهول :

بيروت! نحن الألى ساقوك عارية

للمـــوت يصـــرخ فـــي عينيـــك تعـــذيب
كـــم ناشـــدتنا شـــفاه فيـــك ضـــارعة
و كـــم دعانـــا عفـــاف منـــك مســـلوب
فمـــا اســـتفاق ضـــمير فـــي جوانحنـــا
مخـــدر فـــي ضـــفاف الزيـــف محجـــوب
حتـــى إذا ضـــحك الجـــلاد.. مـــا دمعـــت
عـــين و لا غـــص بالأهـــات مكـــروب
ســـقطت و انـــتفض التـــاريخ يلعننـــا
و أطرقـــت فـــي أســـى المجـــد المحاريـــب

* * *

نهـــيم خلـــف ســـلام عـــز مطلبـــه
و مـــل مـــن وعـــده الممطـــال عرقـــوب
عشـــنا مـــع الـــذل حتـــى عـــاف صـــحبتنا
نمنـــا علـــى الصـــبر حتـــى ضـــج أيـــوب
أكلمـــا قـــام فـــيهم مـــن يـــذبحنا
قلنـــا: الســـلام علـــى العـــلات مطلـــوب
و كلمـــا استأســـد العـــدوان باركـــه
منـــا جبـــان إلـــى الإذعـــان مجـــذوب
لا ترجـــع الأرض إلا حـــين يغســـلها
بـــالجرح و النـــار يـــوم الفـــتح شـــؤبوب

***

وهو لا ينسى أسرته الصغير وذويه ، يأوي إليهم يلوذ بحماهم من هجير الحياة ولفح الواقع المرير ، وتكفيه بسمة حانية من أي فرد من أسرته لتمسح عنه غبار الحياة وعناء العمل ، يقول في قصيدة (بسمة من سهيل) :

أرجـــــــــع فـــــــــي الليـــــــــل
أحمـــــل فـــــي صـــــدري جـــــراح النهـــــار
يثقلنـــــــــــــــــي ظلـــــــــــــــــي
وتكتســـــــي روحـــــــي ثيـــــاب الغبـــــار
حاربـــــــــــــــت بالشـــــــــــــــعر
فـــــــي عـــــــالم لا يفهـــــم الشـــــعرا
غنيـــــــــــــــت للطهـــــــــــــــر
فـــــــي عـــــــالم يغتصـــــــب الطهـــــرا
عـــــــــدت يـــــــــا ســـــــــلمى
ممزقـــــــا بعـــــــد العنـــــــاء الشـــــديد
لـــــــــــــن أدرك الحلمـــــــــــــا
ففـــــيم أمضـــــي فـــــي صـــــراعي العنيـــــد؟
هتفـــــــــت بـــــــــي: أهـــــــــلا!
وضـــــــوأت لـــــــي بســـــمة كـــــــالقمر
وقلـــــــــــت لـــــــــي كـــــــــلا
لـــــن ينحنـــــي الشـــــعر لزيـــــف البشـــــر
وقلـــــــــــت لـــــــــي حـــــــــاذر
أن تتـــــــرك الســـــــاح لمكـــــــر الكبـــــــار

فـــــــــنحن يـــــــــا شـــــــــاعر
نفعـــــــل مـــــــا نفعلـــــــه للصـــــــغار
أعـــــــــود فـــــــــي الفجـــــــــر
أشـــــــق بالشـــــــعر صـــــــدور الخيـــــــل
و ذاك.. لـــــــــــو يـــــــــــدري!
لبســـــــمة ســـــــاحرة مـــــــن ســـــــهيل

وعندما تقدم به العمر، وسار به الزمن في شعابه وتنقلت به الحياة في دروبها، يتحدث عما قابله من عقبات وصعوبات، وكيف تصدى لها بما يملك من ثبات وما فيه من صلابة ورجاحة عقل، يقول في قصيدة (حديقة الغروب) :

خمـــسٌ وســـتُونَ.. فـــي أجفـــان إعصـــارِ
أمـــا ســـئمتَ ارتحـــالاً أيّهـــا الســـاري؟
أمـــا مللـــت مـــن الأســـفارِ.. مـــا هـــدأت
إلا وألقتـــك فـــي وعثـــاء أســـفار؟
هـــذي حديقـــة عمـــري فـــي الغـــروب.. كمـــا
رأيـــتِ... مرعـــى خريـــفٍ جـــائع ضـــارِ
الطيـــرُ هَـــاجَرَ.. والأغصـــانُ شـــاحبةٌ
والـــوردُ أطـــرقَ يبكـــي عهـــد آذارِ
تتبعينـــي! دعينـــي!.. واقرئـــي كتبـــي
فبـــين أوراقِهـــا لا تلقـــاكِ أخبـــاري
وإنْ مضـــيتُ فقـــولي: لـــم يكـــن بطـــلاً..
وكـــان يمـــزجُ أطـــوارا بـــأطوار

تركـــتُ بـــين رمـــال البيـــد أغنيتـــي
وعنـــد شـــاطئكِ المســـحورِ.. أســـماري
إن ســـاءلوكِ فقـــولي: لـــم أبـــعْ قلمـــي
ولـــم أدنّـــس بســـوق الزيـــف أفكـــاري
وإن مضـــيتُ.. فقـــولي لـــم يكـــن بَطَـــلا :
وكـــان طفلـــي.. ومحبـــوبي.. وقيثـــاري
يـــا عـــالم الغيـــبِ! ذنبـــي أنـــتَ تعرفُـــه
وأنـــت تعلـــمُ إعلانـــي وإســـراري..
وأنـــتَ أدرى بإيمـــانٍ مننـــتَ بـــه
علـــي.. مـــا خدشـــته كـــل أوزاري.
حســـن الظـــن يشـــفع لـــي أحببـــتُ لقيـــاكَ.
أيرتُجَـــى العفـــو إلاّ عنـــد غفّـــارِ؟

ويظل قصيد القصيبي بعد رحيله ، يعانق روابينا ، ويهدهد أرواحنا بحلو المعاني ، ورقيق اللفظ ، وجميل الأسلوب .